

# لعبة الخوف...

قصته بقلم حسن محاسب

بالعرق والدم . رفست قدماه الهزيلتان ، الهواء المثقل بالتراب نسم  
سكنت حركته .

\*\*\*

.. كنت فرحا بنجاحي في امتحان القبول . كنت اصر على ان  
اسوق العربية وحدي هذه المرة . انشغل ابي في حفر السياج فسي  
الزربية . لم انصت طويلا لتحذيرات ابي . . . ففزت مرحا خفيفا السي  
عريش العربية . التقطت اللجام والكرباج من القربوس فوق ظهر الادهم .  
على عرين العربية جلست مدليا ساقي في معلمية . لسمت الحصان  
بالكرباج الكنبريت وصاح صوتي في الادهم بنزق : « شي .. ي .. ي » .  
فاتدفع رافعا اذنيه في ثقة كبيرة .

.. صرخت دجاجة جارتنا ام الباز ، ثم رفرت بجناحيها وماتت  
في مجرى عجلة العربية . اشتبكت ام الباز وامي في مراكه طويل . لامني  
ابي ، وهدد بقصف رقبتي عندما اعود من الحقل . حاولت تبرير ماحدث  
لكن ابي شوح براحته المفظة بروث البهائم ، وبعق في راحته الاخرى ،  
وعاد يعزق الزربية بفاسه .

\*\*\*

.. انحنى بجوار رأس الحصان المعجوز . اغمض عينيه .. كان  
جفناه ساخنين .. اختفى بياض عينيه . بحث عن رأس صاحبه .. ففكر  
ان يذهب الى المخبا . كانت اقوام الهدد تزداد ارتفاعا ..  
.. عادت اختي من الحقل صارخة . صراخها لم الشارع كله  
امام الزربية . لظمت ابي وجهها .. صبغه الطين بالسواد . خلع  
ابني قميص الشغل .. وجرى زاعقا : « ياخراب بيتي .. »  
.. في ترعة ام شوشه ، كان الادهم غريقا ، والخوصوا في الماء ، واحضر  
تلصقه في الطين . سقط الرجال في التربة ، خوصوا في الماء ، واحضر  
احدهم « شرشرة » وقطع الاحزمة وحملوا الادهم الى الشط .  
.. التقطت شاطية صغيرة بجوار رأس الحصان المدبوح . . . كانت  
ملونة بدمه . اطبق عليها اصابعه . حاصرته الانفجارات . اتجهت قدماه  
الى الرصيف . ارتدى على كومة احجار خلف جدار . انغرست في  
ساقيه مخالب قطة .. أبعد قدمه عن ذيلها .. للمته حول مؤخرتها ،  
وغطست خلف حجر كبير . لم يعد يسمع تنفسها .

.. ملا التراب عينيه . لفه الظلام فجاة . انهيار جدار قريب  
.. ففزت القطة . اصطدمت براسه .. تجاوزته واختفت في لمحة .  
.. عندما عثروا علي بعد بحث طويل ، وجدوني في كومة حلفاء على  
شاطيء التربة الاخر . . . كانت رائحتي تشير القرف .. وكان سروالي  
مبتلا .. ضربني ابي حتى ادمى وجهي بسبب ذلك ، وحمل جثة الادهم

التصق بجدار مليء بالثقوب ، محاط بالهدد . التصقت ذقنه بياقة  
قميصه المبتلة . تدرجت انفاسه لاهثة . عوى كلب هزيل ناحسل  
الشعر وانكش خلفه . عادت الارض تهتز .. بم بم .. يوووو ..

صاح صبي يحمل على راسه جريدة الخبز : « الصواربخ العمياء .. »  
وانطلق بدراجته في اتجاه المخبا . « بم » خرساء هذه المرة .. تصدع  
جدار عمارة في نهاية الطريق . . . توالى الانفجارات ممتزجة بالانهيار  
والهدد .. ففز الكلب الهزيل ، وفي لمحة كان يختفي في المخبا . احس  
بوحده .. ازداد التصاق ظهره المبتل بالعرق الى بقايا الجدار .

« الوقفة هنا خطر .. »

« اردت ان اقول له انها فرصة العمر .. »

« .. من مصر الصديقة ؟ .. »

« قلت اقدم له بطاقتي الصحفية .. ترددت .. »

.. تبادل الشبان الطويلان الشاحبان ، ابتساماة فامزة . حاول  
ان يتسهم لهما .. لكنهما اسرعا الى المخبا .

.. انهار جدار قريب ، كشف الفبار . بعد لحظة - فري البيت  
القديم .. استطاع ان يميز وقع العصا الفليظة على الاسفلت المهشم .  
رفع ذقنه قليلا عن ياقة القميص . التفت عيناه بساق الرجل ..  
الوحيدة .. تقفز بالتبادل مع عصاه . توقفت الساق والعصا امامه ..  
اتجهتا اليه .. لفحتوجه انفاس الرجل ، ورائحة الشيشة والبصل ..  
سادت نفمة الانهيار من حوله .

« المخبا اكثر امنا ياولدي .. »

« .. تركز اهتمامي كله على بضاعة الرجل .. »

عاد يقول : « العمر لا يضيع هدرا .. »

.. « ماشهى السمييط والبيض في صندوقه الخشبي الصغير! »  
يش الرجل . ابتعدت عصاه وساقه الوحيدة ، في ايقساع  
مضطرب .

\*\*\*

.. في ثانية واحدة ، تناثرت العربية الكارو .. واشلاء صاحبها ..  
على الاسفلت . خارت قوى الحصان المعجوز .. حمحم وسقط مدبوحا  
بجوار الاشلاء .

.. حدق طويلا في خيوط الدم . تابعها وهي تنساب متعرجة الى  
حفر الطريق . صدم احد الخيوط الداكنة الساخنة بقطعة صلب ..  
تلقت حوله .. اندفع راسه .. صدره .. ذراعا .. ثم ساقاه وقدماه  
.. اقترب من الحصان المدبوح . اتسمت عيناه . انتفض جسده المبتل

.. وضعها على العربة وجرها بمساعدة أمي .. وفي الجرن سلخ الغرابلي جلده .

\*\*\*

.. خلف حجر ، بال ، ثم استدار وجلس في مدخل بيست متهدم .. فكر في شراء سجائر . اكتشفت انه جائع .. تذكر بائع السميط والبيض الأعرج . كانت الشاوية في راحته . أصابعه تطبق عليها . تناثر الفبار . اغمض عينيه .

.. فجأة . خيل اليه ان أحدا يقني . فتح عينيه . رآه صبيافا صغيرا يحجل أمامه .. ويقني : « بم بم .. بم بم . » توقف الصبي وسال : « ماما .. ماما .. انت خايفة؟! .. »

كانما الأشياء بداخلي تتلاحق . جذبتني براءة الطفل . وقف أمامي لا يخفي دهشته . ابتسمت له .. ابتسم .. ضحك ، ونظر الى أمه .. اهتزت الأرض تحتنا وتشقق الجدار . اتجهت سحابة دخان راكنة نحونا . وجدنتي احتضن الطفل وامسك أمه بيدي . سرنا كالغرس .

.. في ثانية ، صرخت المرأة وغطت عينيها بيدها .. وجحطت عينا ابنتها وازداد انكماشه في صدري .. وبال على نفسه . كان بائع الخبز على دراجته يندفع أمامنا .. تدرج رأسه فجأة على الاسفلت وطرقت اللماء الساخنة . قبل ان ادرك ما حدث صدمت الدراجة بشريط السكة الحديد .. سقطت وبائع الخبز فوقها بلا راس . لاحظت ان يديه لم تفلتا « الجادون » .

.. « شيء فطيع ! .. » وصمتت كمن يتلوى مكتوما . اردت ان اقول لها : « اننا في مصيدة .. » ، لكنني عجزت عن الكلام . اكتفيت بان هززت رأسي . أضافت المرأة كلمة او كلمتين .. لم اتبينهما . لف الطفل ذراعيه حول عنقي .. ونام .

.. انهار جدار كشف عن عنكبوت دورة المياه ، ثم غاب كل شيء في التراب ..

.. « المخبأ ..! »

ونظرت اليها . رفضت الفكرة برأسها . واصلنا سيرنا . شريط السكة الحديد يمتد بجوارنا بطول « الكورنيش » .. بور توفيق على مرمى البصر . كانت رائحة الاحتراق تزكم أنفي . اظلتنا سحابة كثيفة السواد .

قالت : « الزيتية تحترق .. »

قلت : « وبور توفيق .. »

.. اهتزت الأرض ، لم يعد انهيار البيوت يدهشني . عبرنا شريط السكة الحديد .

.. « من مصر؟! .. »

.. تذكرت ماقاله الشاiban الطويلان الشاحبان : « مصر الصديقة » .. حاولت ان اخلف من خوفي .. قلت :

.. « ارسلتني المجلة لاكتب لها عن مدينة العرب .. » .. اردت ان اضيف ان مجلتي لاتهتم بغير نجوم الفن .. لكنني ابتلعت ذلك .. وابتسمت .

.. رفعت ذراعي لاتجه يسارا .. تابعنا سيرنا . تجاوزنا جامع سيدي الفريب . اقتربنا من القوارب المقلوبة على الشط . لفنا الصمت . رائحة الموت تملأ أنفي . انفجرت الدانات قوية مخيفة هذه المرة . ارتعشت . التصقت المرأة بي فسممت الطفل اكثر الى صدري .. تواتل الفرقة . سألته عن المخبأ بالحاح . قالت انها لا تعرف .

.. لم يكن هناك وقت للدهشة او للتساؤل . حاصرني الخوف .. وسحابات الدخان الأسود المشتعل تزيد من ذعري وانقباضي .. .. جذبني الى القوارب المقلوبة . زحفنا تحت احداهما . تكومت على نفسي . بذلت جهدي حتى لا يصحو الطفل . « مند اعوام تركت القاهرة الى قريتي . حبست نفسي في الدار نحو ثلاثة اشهر بجوار امي .. ثم اعادني الجوع الى عملي .. »

.. قالت : « يبضرو من الجيسات .. » وأشارت بأصبعها في الاتجاه الآخر .. خلف رأسها تماما . ملا انفجار الدانات وصفير الصواريخ اذني .. ملاتهما تماما . « غطست مرة في ترعة «ام شوشه» انشغلت باطفاء عطشي .. كنا في شهر الصيام . تركت ابي يفتسل من التراب والعرق ويتوضأ .. قلت له سأستحم . وملات بطني بالماء . عندما وفقت وراء ابي لنصلي « العصر » تلتلق الماء في بطني الخاوية وفضحني . »

لكرتني بيدها .. قالت :

.. « خايف ..؟ »

.. « أبدا ..! » وغمضت عيني . سيطرت على الرغبة فسي الانكماش .. بذلت جهدا حتى ابتسمت لها . كنت ارتعش . انشغلت بالترقب على المكان .. تجويف القارب عميق ، به شبابه صيبد مهمله .. رائحة الاحتراق تملأ أنفي . ظلال القوارب المقلوبة تتداخل وتتقاطع فوق رمال الشط . طققة الخشب واضحة .. كان ابي يقطع فرعا من شجرة الصفصاف ، أحمله الى الدار نستدفئ به في ليالي الشتاء ..

.. كانت مياه الخليج راكدة ، فوقها طبقة ممزقة من الزيت ومخلفات البواخر . رائحة البوار والهدد تملأ الافق وتحجب الرؤيا .

قلت : القوارب تحترق .

قالت : « ريناستر ! .. » . كانت ترتعش .. جسدها ينفض .. كومت ساقها ثم فردتها . زحفت احسدى قدميها والنصفت بقدمي .. شعرت اكثر بخوفها . نظرت اليها . لم اكن قد رايت وجهها بعد . في العشرين من عمرها . ممثلة الشفتين والصدر والبردين مصفرة الوجه .. اذابت الدموع كحل عينيها .. صار هالة سوداء بجوار خديها . وكانت صديقتي تمنني بكحل عينيها .. ومرة زرتها في مسكنها ، لم تكن تتوقع ذلك . ارتبكت . اعتذرت لها ، وشعرت بالاسف فعلا لانسي رايتها بلا كحل في عينيها .

.. سرى الدفء قليلا في ساقني . امتدت يدها تربت على الطفل النائم بيننا . ضاقت المسافة بين ظلال القوارب .. قفزت عيني من فوق الرمال الى شعرها الذي فقد نظامه وتناسقه . كان مهوشا حول وجهها وفوق كتفها وصدورها . رفعت قدمي ووضعتها فوق قدميها .. وعينا في عينيها . بعد ثانية .. اهتزت خيوط الرؤية بيننا . وافزعنا دانة مدفع مزقت اخشاب بعض القوارب . اهتز قاربنا المنكفيء فوقنا . زحف الدخان والفبار وراذ الماء الى مخبأنا فاهضت عيني في استسلام . كنت دائما اشعر بالخوف كلما زارتني صديقتي في مسكني .. او اتصلت بي في عملي .

\*\*\*

.. تناثرت الرمال حولنا .. لسعتني . نظرت الى عينيها وتبادلنا ابتسامة مهزوزة . كان ابي يزهو بي كلما رأى بنتنا تشيل معي خط القطن .. تطفف من خطها لوزة ، ومن خطي لوزة .. وهي تقني « ياخولي الجينية .. » . لكنه عندما كبرت وصرت اتمسرد على العمل اجبرا في أرض التفتيش « كان يهددني بتطبيق امي . في مرة رأني اغازل بنتا في غيظ الدررة - وقت غذاء الانفار - فضربني واقسم بالطلاق ليشربن من دمي حيا اذا عدت الى ذلك .

.. ضممت الطفل الى صدري ومسحت على شعره . ارتعشت ابتسامتها المخطوفة .

« يبضرو من كبريت او الشط .. »

.. « يعني بعيد ! .. »

.. « ابتسمت . كانت يدها فوق ذراعي التي اطوق بها الطفل .. ساقني كانت بجوار ساقها . ابتسمت لها . راودتني رغبة في ان احكي لها قصة قرأتها عن حرب الهكوس .. لكنها فاجأتني :

.. « على فكره .. انت خايف .. »

قلت : « جدا .. »

وابتسمت . قلت لها واحساس بالاسى يفمرني : « فشات عدة سنوات في ان يكون لي زوجة وطفل .. كنت اخاف ان يموتا جوعا ..  
 .. بعد لحظة ، احسست بطعم الصمت الذي يلغنا .. انسحب الكلب بعينيه البراقيتين الى الطريق . تابسته .. وقف غير بعيد يقول .. ثم انكب يشمشم في الركام والهدد بحثا عن شيء ياكله ..  
 قالت انها تشعر بالجوع ، ومسحت وجهي براحتها . منذ عامين زرت امي في القرية . كانت امام الفرن تسوي ارغفة الخبز .. انحنيت اقبل يدها المعروفة فاحتوتني في صدرها ، وتركت اثرا من الدقيق والعرق على قميصي ووجهي وشعري .

.. قالت وهي تنهض : « ساشترى سندويشات من شارع المحطة .. وسجائر .. » ثم اختفت في الظلام . هزني ذلك من الاعمال . ذات ليلة خرجت زوجتي لشراء شيء للعشاء ، ضايقها احد الشبان فتشاجرت معه . قلت في نفسي لا بد ان اعترف لها بانني زوج واب لثلاثة اطفال ..

.. طال غيابها .. شعرت بالبرد يلسعني . قبلت الطفل ثم وضعت راسه فوق كومة الشباك الممزقة التي وجدتني في جوف القارب المنكفي ، وغطيته بقميصي . وانا اهمس له بحكايات شبح الجوع الذي يفلبنني كثيرا ويحاصر اولادي .. اخافني السكن الرب ..

فقلت للصبي النائم : اعرف . ثم رويت له شيئا من شقاوة الاولاد ... ثم زحفت من تحت القارب .. جلست بجواره .. اسننت ظهري الى مؤخرته ووضعت يدي على دفته الخشبية المكسورة ... وفجأة تفتت الصمت ، واشتعل الظلام يلهب مدافع تقذف بشراة من جبل « عتافة » .

حسن محاسب

القاهرة

## دار دمشق تقدم

### ● اخلاقنا واخلاقهم

تأليف جون ديوي - ليون تروتسكي - جورج نوك

### ● هل للانسان مستقبل ؟

تأليف برتراند رسل ، تصوير ارنولد توينبي

### ● الثورة التي لم تتم

تأليف اسحق دويتشر

### ● في سبيل نموذج وطني للاشتراكية

تأليف روجيه غارودي

يصدر هذا الشهر

### ● الحقيقة كلها

تأليف روجيه غارودي

### ● تاريخ الثورة الروسية

( ثلاثة مجلدات ) تأليف تروتسكي

.. ضحككت ، وقالت : « رافت لم يعد بخاف .. لو كان صاص كان لعب لعبة ال .. بم بم .  
 قلت : هو صغير على الخوف .  
 قالت : « في يونيه » دخل تحت السرير وبال على نفسه ..  
 صممت فجأة .. غامت عيناها . انشفت برافت .. صممت الى صدري وقبلته . « كنت افقد ابني حسام في حديقة الحيوانات » .

\*\*\*

.. تذكرت كل شيء .. لحظة اللغاء . اردت ان اسألها عن زوجها .. عن بيتها .. نظرت اليها ، خجلت .. ترددت اخيراً قلت لها : « البقاء هنا مخاطرة ..

قالت : « هاجرت من عامين .. كان يزورني كل شهر . قال لي آخر مرة ان بيتنا انضرب .. »

.. اهتزت الارض .. رجنتا بعنف . ازداد التصاق اقدامنا . « سقطت عريشة البهائم عندما انكسرت العروق الموسية . انهارت السفيفة وفوقها احمال من الحطب والبريس وقش اللرة . انكشفت الخنافس ومرق ثعبان الى الزقاق . ولولت امي .. هرع الجيران وساعدوا ابي في انقاذ الجاموسة والحمارة من الموت .. يومها قالت امي ان العين اصابتنا .. وسخر منها ابي لاننا لا نملك فيهما غير ربع خلفهما .. »

قالت : كان متزوجا من امرأتين غيري . رات الدهشة في عيني ، فابتسمت وقالت : « كانت له زوجة في الزعفران .. وزوجة في المطرية .

.. وانت في السويس . خطر لي ان اقول لها ان السويس وحيدة الى حد غريب .

ضحكت .. وقالت : كان صيادا . زارني في مديرية التحرير من ستة شهور .. بعدها انقطعت اخباره . فلقنت عليه ..  
 .. تواتل الانفجارات . اشتد اهتزاز الارض تحتنا . التصقت السيقان اكثر .. قبضت اصابعها على ذراعي . وعوى كلب ، واندفع تحت القارب .. صدم بي ، فاسرع الى القارب المجاور .. وقد يلهت ، وعيناه تحدفان في عيني .

.. تلاصقت ظلال القوارب المقلوبة .. وامتزجت سحبات الدخان الكثيفة بظلام الفروب .. وتهدت ايزيس . غمغمت بصوت خافت : « تمنيت ان يكون اهل او اقارب هنا .. » واضفت لنفسي : انني اكره العودة او الكتابة للمجلة .. فكرت في اشياء كثيرة احكيها لها .. لكنني اكتفيت بالنظر الى عينيها .. كانتا في لون العسل الاسود المخلوط بالطحينة . قالت : باع البيت انفاضا .. وتركتني ! .

.. انفرست اصابعها برفق في شعري . احتوت راسي براحتها . قالت : « اهلي .. واقاربي .. كلنا لاجئون .. » ربت على شعرها المتناثر فوق صدرها .. ابتلت اصابعي بالعرق بين نهديها . « في شهر العسل .. اخذت زوجتي الى نزهة في النيل .. بللنا اصابعنا بماء النهر وتبادلنا تعويذة السعادة والخصوبة .. »

\*\*\*

.. غمغمت في ارتباك .. اتعرفين : « هناك فرق كبير بين الحرب هنا ، وبين الحرب التي ارسلوني للكتابة عنها .. » خفتت الانفجارات ، لكن الدوي ظل يملأ اذني .. تحول الى طنين عنيف .. ازدادت رغبتني في تدخين سيجارة . تذكرت « عم عزوز » العجوز .. بقال قريننا الذي يبيع للناس بالاجل ويتقاسم معهم المحاصيل كل موسم .. ضحككت وقلت لها : « اتعرفين . كنت اشرب زجاجة بيرة دائما كلما اضطرت للدلاء سراي .. »

.. هزت راسها .. وربنت بيدها على طفلها النائم في حضني ...